نحن أبناء الموت

أسماء الغول

هل تستطيع أن تبقى حياً؟

ابقَ حيا إذن، راوغ الموت، لا تجعله يغلبك، لا تفكر به، لا تتخيل هذه الجثث لأطفالك، اقفز عن خوفك، لا تنتظر تهدئة، ولا تأمل بالنجاة، ابقَ حياً فقط.. لا تفكر باللغة..لن تجدها، لا تبق في بيتك.. ابحث عن المكان الآمن في زمن الحرب..

***

المشهد يبدو بتلك البساطة والفداحة: انه لحم محترق.. لا معالم إنسانية سوى صندل في إحدى الأقدام، شعرت أني أهتز، الأرض تتمدد من تحتي، كان اليوم الأول في الحرب حين تواجدت في تلك الزاوية بالصدفة من صالة المستشفى، لم تنقذني سوى يد الطبيب التي وضعها على عيني، منذ تلك اللحظة بدأت أتعرف على روائح جديدة سأكتشفها بعد ذلك ..لكنها هذه المرة كانت اللحم البشري المحروق مخلوطة بالبنزين.

***

في الحرب تصبح الذاكرة واحدة، فتقسم أن هذه العائلة استشهدت في حرب ٢٠١٢ ولكنك تكتشف أنهم قضوا في حرب ٢٠٠٨، وتؤكد جازماً أن ذاك المنزل قصف من قبل في ٢٠٠٨ ولكنك تكتشف أنه في ٢٠١٢، ثم تقول أن هذه الطفلة استشهدت في حربنا هذه ٢٠١٤ ولكن الأيام تتماهى وتطول لتصبح ثعباناً واحداً فلا تتأكد هل في الحرب قبل التهدئة أم بعدها؟.

***

لا أرتدي درعاً واقيا، ليس عندي واحد، ولم يكن عندي في تغطيتي لثلاثة حروب، فكرت أن الصحافي خالد حمد مات بقذيفة قتلته وهو يرتدي هذا الدرع في حي الشجاعية، فمن أي موت سيحميني؟ انه مخصص للقتل الأنعم الأكثر منطقية وربما آدمية.. لرصاصة، لقنبلة يدوية..وليس لقذائف وصواريخ .. تهبط عليك لتنهشك

***

في الحربين السابقتين واجهت مشكلة مع الخوف..في هذه الحرب أشعر أن الخوف انفصل عني ومشي بعيدا..كنت أرتعب من فكرة أنك حين تموت لا تعرف أنك تموت، تموت وفقط..فلم يرجع إلينا أحد الشهداء ليقول لنا عن الموت قصفاً..هل يختلف عن الموت عادياً؟..هل يتشابهان..؟..هل نكف عن القلق على أبنائنا وإيجار المنزل، ودين الدكانة..؟ وإذا كنا أحياء عند ربنا كيف لا نقلق على أحبائنا من بعدنا..هل هناك درجة من الرضى والراحة لا تجعلنا نقلق؟..هل نصل إلى السعادة الكاملة فنعرف أن أهل الدنيا مثقلون بخوفهم وحياتهم وحربهم فنشفق عليهم؟.

يبدو أنني مازلت أواجه مشكلة مع الخوف..مع الموت..

***

الصورة من وراء الكاميرا مضخمة.. مهيبة..تفخم اللحظة، لكن في الواقع إن جسد الشهيد كتلة صماء تخضع للفيزياء تماما وليس للحياة التي نقيسها عليه..لم يعد يحتاج إلى ملابس أو عطر أو استحمام. يموت الإنسان وتموت معه كل الحكايات، حين تراهم في الثلاجات أو على أرضيات المستشفيات أو في المنازل المهدومة.. تبدو نهاية حاسمة حازمة ليس كما تشعرها في الإعلام بمقدمات وتمهيد.. الموت لا يسألك رأيك حين يقترب منك ..تنتهي..هكذا دون رحمة من أحد ولا يبقى منك سوى صورك أو حسابك على الفيسبوك..ولا يشفع لهذه قسوة حينها سوى الإيمان

***

السماء تختلف..طعم ريقك يختلف..رائحة المكان تختلف..مشاعرك الأولى التي عادة ما كانت تجتاحك حين تعود لمدينتك الأم وفي حالتي هي رفح يصبح التعبير أمامها عاجزاً..كان يوم السبت الثاني من أغسطس بعد الجمعة السوداء التي قصفت فيها المدافع المدنيين بعشوائية..اكتشفت أني أحفظ الكثير من الأدعية وأنا أرددها أثناء توجهي إلى هناك مع ثلاثة صحافيين وهذه المرة أرتدي درعا أعطاني إياه السائق الشجاع رغم أني نبهته أنه ليس وقت النبالة الآن.

مجرد دخولنا تم قصف منزل عياد أبو طه وقتلت الطائرات أربعة منهم، توجهنا لمستشفى

الكويتي رأيت الطفل رزق أبو طه (عاما واحدا)..تشعر أن سخونة الحياة واللعب والضحك لا تزال عالقة بجسده..كنت أول من أبلغت أمه عن استشهاده..شعرت أني لوكنت بمكانها لن أقبل إخفاء الأمر عني..أمسكت صدرها صارخة بي "كيف بدو يرضع هلقيت؟"..شعرت بالفجيعة وأنني لن أتلو الأدعية في المرواح، فبعد ما فعلته بنفسي وبها لن أفجع بموتي..وهذا ما حدث لم أمت ولكني رددت الأدعية..الإنسان ضعيف حتى في يقينه، مكابر حتى في ذنبه.

***

ماتت هنادي وأسماء..ابنتا عمي ومعهما عمي وزوجته وابنيه محمد ووائل وثلاثة من أبناء وائل ملك واسماعيل ومصطفى بعد قصف صواريخ طائرات الاف ١٦ منزل المخيم الاسبست بصاروخين، ومات معهم منزل الذاكرة والطفولة والوعي الأول والانتفاضة الأولى في مخيم يبنا برفح.. منزل جدي جمعة الغول الذي ولدنا جميعاً أحفاده من جيل الثمانينات فيه..

ماتت هنادي وأسماء دون أن أنفذ وعدي لهما "بدنا نطش في غزة"، لم يكن الحلم الشخصي أكبر من سعادة بسيطة تتغلب على الفقر والهم..الكل يقول أنهما الآن في "طشة" السعادة الأزلية فيخف الألم وأتمنى لقاءهما لأرى الابتسامة المفتوحة على الأبد.